مجلة التاريخ المتوسطي. المجلد 08، العدد 02. شهر جوان 2026. ص: 332 -351
P-ISSN: 2716-764X, E-ISSN: 2716-7747

ت. الإرسال: 24 - 02 - 2026	ت. القبول: 25 - 04 - 2026	ت. النشر: 30 - 06 - 2026

ظاهرة التحالفات القبلية للبدو الرحل ضد التوسع الروماني بالتخوم الصحراوية لبلاد المغرب " الحدود الإدارية الرومانية في مواجهة الامتدادات السوسيو-ثقافية المحلية"

The phenomenon of tribal alliances of Nomadic peoples against Roman expansion on the Saharan borders of the Maghreb. "Roman administrative border versus local socio-cultural extensions"

خالد محفوظ
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02
m.khaled@univ-setif2.dz

الملخص:

يتناول هذا البحث حلقة خاصة من مقاومة البدو الرحل للتوسع الروماني في التخوم الصحراوية في شكل تحالفات قبلية لوضع حد لاستراتيجية السلطة الرومانية التي سعت إلى إخضاع المنطقة أمنيا وثقافيا، وهو محاولة متواضعة للعودة في موضوع مقاومة البدو الرحل شبه الصحراويين ضد التوغل الروماني في العمق المغاربي المتمثل في المناطق المشكلة لإقليم الانتقال الطبيعي بين التل والصحراء الممتد من فزان شرقا إلى جنوب أغادير غربا مرورا بالمرتفعات الجنوبية للتل والأطلس وحواف الصحراء الشمالية ، وأخص بالذكر هنا مجال التخوم الصحراوية بالبروقنصلية (ليبيا وتونس) و نوميديا و موريطانيا القيصرية (الجزائر)، لكن في أسلوب جديد تمثل في اللجوء إلى التحالفات القبلية الكبرى بثورات شاملة وموسعة جغرافيا، بين أهم التجمعات التي كانت حاضرة في المنطقة على غرار قبائل: الغرامنت (Garamantes)، الجيتول (Gétules)، الموسولام (Musulames) والمور(Maures).

تتضمن إشكالية البحث حقيقة الواقع التاريخي لظاهرة التحالفات القبلية ضد التوسع الروماني بالتخوم الصحراوية وانعكاساتها على البلاد المغاربية، و التي بدورها استدعت التساؤلات الفرعية التالية: ماهي أسبابها وظروفها وخلفياتها الحقيقية؟ ما هي أهم النتائج التي حققتها على الصعيد المحلي؟ كيف كان رد فعل السلطة الرومانية منها، وكيف يمكن تفسير نجاح تحالفات هذه التجمعات القبلية ولو لفترة معينة رغم حزازاتها السياسية؟ و هل يمكن رد ذلك إلى واقع عمق النسيج السوسيو – ثقافي وتجذره وتكامله بين الساكنة المغاربية خلال الفترة القديمة عموما وفي ظل الاحتلال الروماني بالخصوص؟

اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي في نقل واقع هذه التحالفات، بالإضافة إلى التحليلي باستعراض خلفياتها وتطوراتها من خلال إبراز العلاقة بين السياسة الإدارية للرومان بالتخوم الصحراوية لبلاد المغرب المبنية على رسم الحدود بين العوالم الرومانية والشعوب المناهضة لها بهدف التشتيت الجغرافي بين مناطق التل على منحى غرب شرق وبين التل والصحراء بمنحى شمال جنوب مستندة في ذلك على جهاز عسكري معقد والمتمثل في خط الليمس، ثم العمل على سياسة الرومنة بهدف التشتيت الثقافي من أجل استغلال اقتصادي، ورد فعل الساكنة المحلية (البدو الرحل) الذي تجسد ميدانيا في مقاومة عسكرية تطورت من ثورات قبلية مشتتة إلى تحالفات قبلية أوسع في المكونات الإثنية و مجاليا، ثم اللجوء إلى التركيب من خلال وضع مجموعة من النتائج.

خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج تتمحور في الأساس حول حقيقة نجاح التحالفات القبلية لدي ساكنة التخوم الصحراوية ودورها في إضعاف النفوذ الروماني بداية منتصف القرن الثالث وتقهقر سيطرته الميدانية وإجباره على الانسحاب نحو الشمال بمنحى شمال شرقي، الشيء الظاهر في مشروع إصلاحات الإمبراطور ديوقليسيانوس العسكرية والأمنية التي ترجمت وضعا أمنيا خارج السيطرة في الحدود الجنوبية، الأمر الظاهر ميدانيا من خلال أثار التموقع العسكري الجديد المكثف والذي

أخذ طابعا تحصينيا، وكذلك اجتياح البدو الرحل بلاد التل، واسترجعوا مجالاتهم الحيوية التي صودرت منهم خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، مع تسجيل ظاهرة استمرارية نشاط المراكز التي فرَّ منها الرومان. الأمر الذي ترجم واقع عودة المنطقة إلى طابعها السوسيو اقتصادي الذي وجدهم عليه الرومان، هذه التطورات دفعت السلطة الرومانية إلى مراجعة استراتيجيتها العسكرية والاجتماعية بالمنطقة، الحدث الذي اعتبر بداية نهاية الرومان ببلاد المغرب.

الكلمات المفتاحية: التحالفات القبلية –البدو الرحل – بلاد المغرب – الاحتلال الروماني.

Abstract:

This study examines a specific moment of nomadic resistance to Roman expansion on the edge of the North African desert, manifested by tribal coalitions aimed at eradicating Roman tactics of military and cultural subjugation. It focuses primarily on the desert regions of Proconsular Africa (Libya and Tunisia), Numidia, and Mauretania Caesariensis (Algeria), but from an unusual perspective: that of the vast tribal coalitions formed through large-scale and geographically dispersed uprisings among the region's most prominent groups, such as the Garamantes, Gaetuli, Musulami, and Moors.

The central question of this research is to examine the historical reality of these tribal alliances against Roman expansion on the desert frontiers and their repercussions on the Maghreb countries. This has raised the following questions: What were their causes, circumstances, and true contexts? What were their main results at the local level? How can we explain the success of these tribal alliances, even if temporary, despite their political rivalries? Can this success be attributed to the depth and entrenchment of the socio-cultural fabric and its integration within the Maghreb population?

This study adopts a descriptive historical approach to understand the reality of these alliances, complemented by an analytical approach that examines their context and evolution. It notably highlights the link between Roman administrative policy on the desert borders of the Maghreb and the peoples who opposed it. The aim was to geographically fragment the region along a north-south axis. This fragmentation was followed by a policy of Romanization aimed at cultural fragmentation for the purposes of economic exploitation. The study also examines the reaction of the local population (nomads), which manifested itself on the ground as military resistance evolving from isolated tribal revolts to broader tribal alliances encompassing various ethnic groups. Finally, the study offers a synthesis of the findings.

The study concludes with a set of findings that primarily highlight the success of tribal alliances among the inhabitants of the borderlands and their role in weakening Roman influence in the mid-3rd century. This led to a decline in Roman territorial control and forced a retreat northward. This situation was reflected in the military and security reforms of Emperor Diocletian. On the ground, this manifested itself in the deployment of a new, intensive, and fortified army, as well as in the incursion of nomadic tribes into the Tell Atlas region. Furthermore, the study noted the persistence of activity in centers abandoned by the Romans, indicating a return of the region to the socio-economic character inherited from the Romans. These developments prompted the Roman authorities to revise their military and social strategies in the region.

Key words: Tribal alliances – Nomadic Bedouins – the Maghreb – Roman occupation.

بريد الإرسال: خالد محفوظ،: **m.khaled@univ-setif2.dz**

مقدمة

عملت السلطة الرومانية منذ وطئت قدمها الأولى بلاد المغرب على إنجاح عملية إخضاع المنطقة أمنيا وثقافيا من أجل استغلال اقتصادي لصالح الدولة الرومانية، إذ عمدت إلى مجموعة من آليات للسيطرة، وكان أبرزها رسم الحدود السياسية والتقسيمات الإدارية تحت مسمى المقاطعات، هذه الأخيرة التي ارتكزت في الأساس على عصب خط الليمس الحدودي وخصوصا نحو العمق المغاربي باتجاه الجنوب، فكان قاعدة أساسية في سياسة مسح الأراضي المعروفة اصطلاحا بالكنترة (**Centurae**) بعد الاستيلاء عليها أو مصادرتها من القبائل المحلية بحجج عدة، فاضطرت السلطة الرومانية إلى تقاسم حياتها مع الساكنة المغاربية وخصوصا المناطق الداخلية والتخوم الشمالية للصحراء بإستراتيجيات براغماتية، وكان أهمها اتفاقيات هدنة وسلام وكذا زرع مراكز عمرانية ناتجة عن تفكيك المدينة الرومانية من أجل الاستقطاب الاجتماعي وبخلفية أمنية واقتصادية.

قليلة هي الدراسات المحدثة التي تناولت موضوع ظاهرة التحالفات القبلية لقبائل التخوم الصحراوية لبلاد المغرب موضوعا مركزا ومستقلا خارج السياق العام لهذه التجمعات السكانية كالأصول التاريخية والامتدادات الجغرافية والميزات الإثنية والسوسيو-اقتصادية، وكذا ردود أفعالها من التوسع الروماني خارج التحالفات، أما القليل المتوفر في دراسات أكاديمية فيبرز في شكل بعض المؤلفات والمقالات، ولعل أهمها أعمال كل من: ديزانج(Desange J.) من خلال المقالات المنشورة في الموسوعة البربرية أو مؤلفه المرجعي (Catalogue des tribus Africaines…)، أعمال جون ماري لاسير (Lassere, J.M.) وخصوصا مؤلفه (Vbique Populus…)، دراسة بن عبو مارسيل (Ben Abou)الموسومة: (La résistance Africainea la romanisation)، مؤلف الباحث شنيتي محمد البشير الموسوم: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، بالإضافة إلى مجموعة من مقالات أكاديمية نذكر منها على سبيل المثال: الباحث تروسي (Trousset, P.) في مقال(Nomadisme saharien en Afrique du Nord dans L'Antiquité)، وكذلك دراسات الباحث (Mattingly D.) المتخصص في حضارة الغرامنت.

البحث في موضوع مقاومة ساكنة التخوم الصحراوية للتوسع الروماني ببلاد المغرب في شكل تحالفات قبلية،[1] ومن زاوية جديدة يستدعي طرح إشكالية حقيقة واقع هذه الظاهرة التي قُزمت في صداها من طرف بعض المصادر القديمة والمحدثة التي أبعدت عنها عنصر "الوعي التحرري" الذي يندرج في سياق طرح المدرسة التاريخية الكولونيالية التي حاولت تكريس فكرة استحالة قيام وحدة سياسية ببلاد المغرب. إن العودة إلى بعض النقاط المرتبطة بموضوع مقاومة قبائل التخوم الصحراوية للاحتلال الروماني على غرار الناسامون، الجيتول،

[1] يقصد بها تلك "المؤسسات المستقلة" التي برزت في فترات متقطعة خلال التوغل الروماني في العمق المغاربي منذ نهاية القرن الأول قبل الميلاد إلى غاية منتصف القرن الثالث للميلاد، إذ دمجت بعض التجمعات القبلية التي كانت حاضرة في إقليم الانتقال الطبيعي بين التل والصحراء الممتد من فزان شرقا إلى جنوب أغادير غربا مرورا بالمرتفعات الجنوبية للتل والأطلس وحواف الصحراء الشمالية، إذ برزت في شكل تحالفات أكبر لتعزيز القوة، مرتكزة على روابط التضامن والحماية والدفاع المشترك ضد الاحتلال الروماني، تعويضا لغياب دولة مركزية قوية.

الموسولام والغرامنت وأقل درجة المور في شقهم الجنوبي، باعتبارها نموذج لا يختلف عن مقاومة مناطق التل في أسبابها الاقتصادية وخلفياتها السياسية والاجتماعية، فلماذا لجأت هذه التجمعات القبلية في مقاومتها إلى التوغل الروماني إلى استراتيجية التحالفات؟ و إلى أي مدى يمكن اعتبار استراتيجية التحالفات نتيجة امتداد لواقع سوسيو اقتصادي عريق بالمنطقة؟ وبالتالي تفنيد فكرة استحالة الوحدة السياسية ببلاد المغرب. ذلك بالتركيز على تفسير انعكاسات هذه التطورات على المنطقة وساكنتها المحلية المتجلية في تقهقر السيطرة الرومانية وإجبارها للتراجع نحو الشمال الشرقي، ثم محاولة تفسير ظاهرة بقاء هذه المناطق التي فرَّ منها الرومان مزدهرة اقتصاديا، وهل كان لشريحة الأفارقة المرومنين دورٌ في هذه الاستمرارية؟

طبيعة الموضوع تستدعي تشكيل صورة الواقع التاريخي لهذه النماذج المتميزة من التحالفات القبلية من خلال عرض الظروف العسكرية والأمنية التي سبقت هذه المقاومة، و كذلك محاولة إبراز الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية التي دفعت بقبائل التخوم الصحراوية إلى إعلان الحرب على الرومان، ثم تركيب هذه المعطيات بهدف وضع وقفة تأملية[2] مع أفق سد بعض الثغرات التاريخية من خلال عرض أهم نتائج هذه التطورات على الجانبين؛ المحلي والروماني، ومحاولة تفسير أهم الانعكاسات التي ترتبت عنها في شكل تحولات اقتصادية واجتماعية كانت لصالح الساكنة المحلية على المدى البعيد كبروز كيانات سياسية محلية مستقلة.

بالنسبة إلى مصادر الموضوع ومراجعه اختلفت من مؤلفات أدبية إغريقية ولاتينية والتي تناولته غالبا في جزئيات مشتتة أو عابرة، و مصادر أثرية انحصرت أساسا في النقائش اللاتينية وكذا بعض البقايا العمرانية كالقلاع والحصون والأبراج وبعض المسالك. إلا أنها بقيت محدودة الإفادة لمجموعة من اعتبارات؛ كعدم دخول هذه الأحداث في اهتمامات الكتّاب القدامى كالإغريق واللاتين، أو تعمدهم عدم التشهير بإخفاقات السلطة الرومانية، أما الدراسات المحدثة فقد تعود "قلتها" إلى شح المادة الخبرية وصعوبة التعامل مع المادة الأثرية الشحيحة من جهة واتسام البعض المتوفر منها بالتحيز للنظام الروماني القائم، إذ اتسمت بالدعائية مما يجعل الباحث متردداً في استغلالها في دراسة أكاديمية.

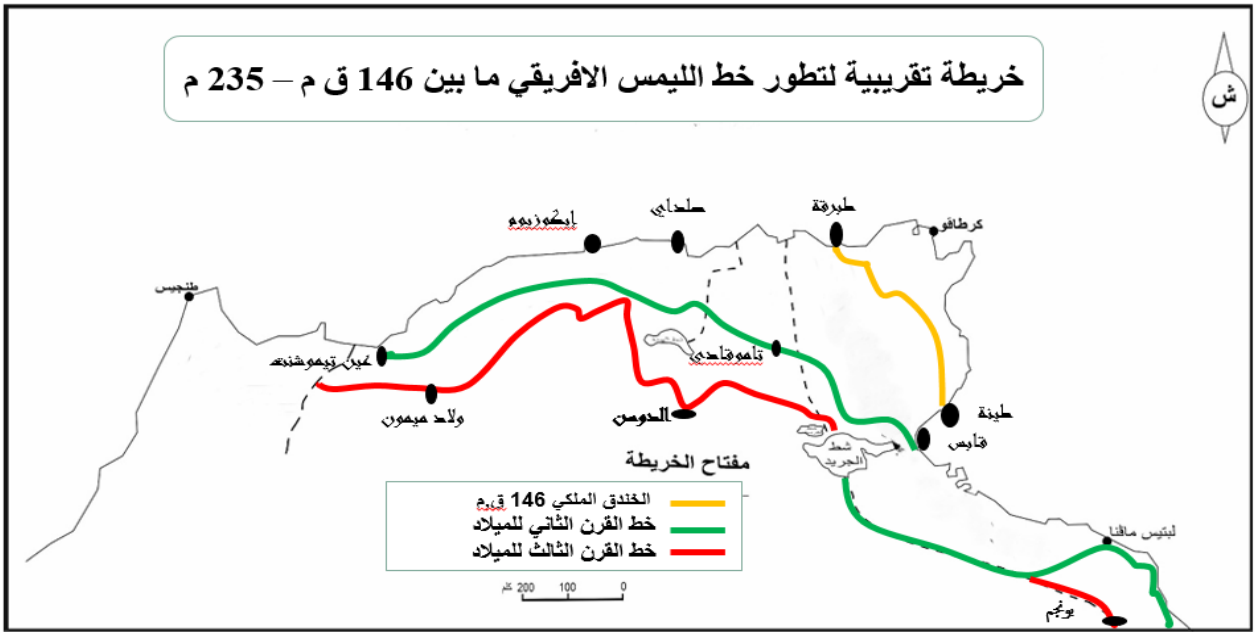
1- التوغل الروماني في العمق المغاربي

كان الاستيلاء الروماني على العمق المغاربي نسبيا و بطيئاً تمّ على شكل احتلال إقليمي استند إلى نشاط المنظومة الدفاعية المتمثلة في خط الليمس ومكوناته(شنيتي، 1999)، حيث جسد ميدانيا حدود السيطرة الرومانية، هذا الأخير الذي تحرك مرتين زمنيا و بمسار شرق غرب مع انحناء نحو الشمال كلما اتجهنا غربا (خالد، مقاومة.2014:198).

[2] بهدف فتح أفاق لدراسات تاريخية أثرية تتناول جزئيات الموضوع بدقة مجالية وزمنية

الخريطة رقم 01:

خريطة(تقريبية) لتطور خط الليمس الإفريقي خلال الفترة الممتدة ما بين 146 ق.م – 235م



المصدر: إنجاز صاحب المقال

عرف مطلع القرن الثاني للميلاد حركة توسعية في الشرق، حيث وصل الرومان إلى التخوم الصحراوية (شارن، 2007: 136-137)،فيحين تأخر التوسع في جنوب نوميديا و الموريطانيتين،(أنظر الصورة رقم **01**) هذه الاقاليم التي ستكون محل اهتمام مؤسس الأسرة السيفيرية (192- 235م)،سبتيموس سيفيروس (193-211م)حيث أطلقت عليه عبارة "موسع الإمبراطورية"(Le Bohec, 2013 : 75-76)، الذي سيعمل على تحريك موضع خط الليمس نحو الجنوب و السيطرة على الهضاب العليا و السهوب الكبرى حتى التخوم الصحراوية (Ben Abou, 1976 : 208)، من أجل محاولة توقيف القبائل الشبه الصحراوية ودفعها للاستقرار في أقاليم محددة وخصوصا في نقاط تداخل خط الليمس الموريطاني بالنوميدي بالشرق الشمالي والجنوبي لإقليم الحضنة(خالد،2020: 154).

1-1- التوغلفي إقليم طرابلس:

انتهجت السلطة الرومانية في خليج السيرت الكبرى في البداية، سياسة دفاعية مبنية على تتبع حركة القبائل المحلية و كذا ممرات القوافل التجارية أكثر من سعيها إلى وضع استحكامات عسكرية بخلفيات استراتيجية بعيدة المدى(Ben Abou, 1976 : 169)،حيث اتسمت هذه الفترة بمهادنة القبائل المحلية و اكتفت بضمان سلام أمنى معها نتيجة حرصها على إبقاء العلاقات القديمة خلال الممالك الوطنية المستقلة، وبقي الحال كذلك حتى مجيء السيفيريين، الذين أعلنوا التوسع أكثر نحو الجنوب في المناطق شبه الصحراوية و الصحراوية الشيء المؤكد في الانتشار الواسع للمراكز العسكرية الرومانية مثل مركز تيجيس (Thigis) أو برج قرباطةحاليا بضواحي قفص، بيزيريوس (Bezereos) بئر غزن حاليا(جاب الله، 2024: 46 – 47)، مركز بونجم أو غولاي

(Gholaia) قديما الذي أنشأ حوالي 201م، حيث كان بوابة إلى جرمة عاصمة الغرامنت، بالإضافة إلى مراكز ؛سرسي، عين ويف، وقلعة قرزة، ومركز قلعة سي عون الواقع ما بين خط قابس و غدامس (Le Bohec, 76 : 2013، هذه المراكز وأخرى كان هدفها خلال الفترة السيفيرية مزدوج؛ فأمنية لمراقبة تحركات القبائل واقتصادية لهدف السيطرة على القوافل التجارية بين الواجهة البحرية وجنوب الصحراء : Trousset, 2012) (06، والتي كانت في الأساس طريقين ؛ فالأولى باتجاه الغرب انطلاقا من مدينة تاكاب (Tacape) قابس حاليا نحو الجنوب الغربي باتجاه غدامس، أما الطريق الثانية فهي باتجاه الشرق الرابطة بين لبدى الكبرى وإقليم فزان مرورا من بونجم و جرمة، في هذا السياق يذكر الباحث لوبوهيك بأن قوس النصر المشيد بمدينة لبدى الكبرى الخاص بالإمبراطور سيبتيميوس كان مهدى من طرف أعيان المدينة عرفانا له نظير تأمينه المدينة من تحرشات البدو الرحل

. (Le Bohec, 2013 : 76)

1-2 - التوغل جنوب نوميديا:

نشرت السلطة الرومانية مجموعة من مراكز عسكرية استراتيجية متقدمة للاستطلاع واستباق الأحداث، و كان أهمها من الشرق إلى الغرب : الدوسن ، أوزوم (Ausum) بئر سادوري حاليا ، القهرة ، عين الريش ، تادمايت وأخيرا دمد (مسعد حاليا)(Picard, 1947 : 49)، هذا الأخير نفذ دورا مهما في مراقبة منفذ ممرين من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب نحو الشرق، كانا حيويين في اقتصاد القبائل المحلية، فالأول كان باتجاه شمال والثاني من منطقة الأغواط باتجاه الحضنة شرقا مرورا بعين الريش(Ben Abou, 1976 : 172)، حيث أقيم المركز بمحاذات وادي جدى مدعما بمراكز أخرى أقل تركيزا لضمان معبر منخفض الأغواط;الهضاب العليا(شنيتي، 1999: 148)،وقد ارتبط مركز ديميدي بفرقة الجمالة التدمرية (Numerus Palmyrenorum)(خالد، 2020: 151) التي جُلبت من سوريا كون تكوينهم وخبرتهم تتلاءم مع مناخ و ظروف جنوب الجلفة، أما عن أهداف التوغل جنوب نوميديا، و بغض النظر عن الدوافع الأمنية المتمثلة في السيطرة على معابر البدو ومسالكهم بين الصحراء و التل(شنيتي، 1986: 14)، فإن الرغبة كانت أساسا السيطرة على مجالات حيوية اقتصاديا، إذ استحوذت السلطة الرومانية على أراضٍ شاسعة استغلت في الرعي و الزراعة و خصوصا الشجرية منها (الزيتون) بالإضافة إلى الاستغلال المنجمي(Baradez, 1949 : 195 – 202)والتحكم على حركة القوافل التجارية و إخضاعها للجباية، ولعل أشهرها معبر زاراي (Zaraï) الذي أكدت الآثار التي عثر عليها بالموقع أنه كان معبرا يعرف حركة موسمية نشيطة للكثير من القبائل الصحراوية(Trousset, 2012 : 09).

1- 3 - التوغل جنوب موريطانيا القيصرية:

عرف التوغل الروماني جنوب موريطانيا القيصرية أوجَهُ خلال الأسرة السيفيرية (Ben Seddik, 1979 : 173 – 183)،حيث ارتبطت العملية بغرض اقتصادي بالدرجة الأولى، إذ استطاع سبتيموس سيفيروس احتواء سفوح سلسلة البيبان، من خلال مد طريق يمتد من سيتيفيس (سطيف) باتجاه أوزيا (سور الغزلان) غربا، كما أنشأ

مركز تاتيلتي (ونوغة شمال المسيلة) بغرض مراقبة حركة قبائل سهول الحضنة (Salama, 1951 : 232)، كما وضعت السلطة الرومانية سلسلة من مراكز عسكرية على طول الخط الرابط بين أوزيا نحو القيصرية (شرشال) وكان الهدف مراقبة السفوح الجنوبية لسلسلة البيبان و التيطري، وبالتالي عزل الجنوب عن الشمال، وفي مرحلة لاحقة سارعت السلطة الرومانية في احتواء سلسلة الونشريس بعدما كانت السفوح الشمالية فقط خاضعة منذ الأنطونينيين (96-192م)، أما عن احتواء السفوح الجنوبية فكان عن طريق مد خط دفاعي جنوب سلسلة الونشريسإلى فرندة (تيارت)، حيث ينطلق من مرتفعات البيبان وصولا إلى مغنية مرورا بحصن تعراس وعين توتة ، غريميدي (عين غريمد) ، بوغار، وقد بلغ عدد هذه الحصون التي أنشئت ما بين 198 و 211 م حوالي خمسة عشر حصنا(شنيتي، 1999: 68 - 69)،وقد وُضع مركزٌ متقدمٌ على هذا الخط بالجنوب الغربي لتيارت، تحت مسمى أوبيدوم ومركز أخر جنوب ألتافا (Altava) ولاد ميمون حاليا(Ben Seddik, 1979 : 168)، كل هذه الإجراءات كانت بهدف السيطرة على التخوم الصحراوية (Hogoniot, 2000, p. 72) لاحتوائها على تجمعات معادية للرومان جاهزة للانقضاض عليها في أي مناسبة(Hugoniot, 2000 : 72).

2- ظاهرة البداوة ببلاد المغرب خلال العصر الروماني وأهم القبائل البدوية:

ظاهرة البداوة كانت حاضرة بالبلاد المغاربية عموما والجزائر خصوصا منذ الألفية الخامسة قبل الميلاد، الشيء الظاهر في الرسوم والنقوش الصخرية المنتشرة في الجنوب(بن عطى الله، 2014: 323)، هذا النمط الذي كان وليد الخصائص الجغرافية لبلاد المغرب، كما ذكرت هذه الأقوام في المصادر الفرعونية على أنهم مربّو قطعان أغنام ومعز وأبقار(مصطفى كمال، 1966: 32 – 36)، ثم تليها المصادر الإغريقية بداية بهيرودوت الذي سيستعمل مصطلح نوميداس (Numidas) للدلالة على نشاط اقتصادي مبني على البداوة و الترحال، حيث نُعت بها جزء كبير من الساكنة المغاربية، المصطلح الذي سيشتهر ب:"النوميد(Numidae) ، ثم يُؤكد هذه الظاهرة مجموعة من الجغرافيين أمثال سترابون (Strabon)، كلاوديوس بطليموس (Ptolémée) ليأتي المؤرخ السياسي سالويستيوس (Salluste) ذو الأصول اللاتينية ليخوض بنوع من التفصيل في هذه القبائل البدوية وعلاقتها بالتركيبة الأثنية في شمال إفريقيا القديم(كريسبوس، حروب يوغرطا. 1997)، هذه الظاهرة التي ستعرف نوعا من التراجع لصالح الاستقرار خلال فترة الممالك الوطنية المستقلة، إذ حاول الملوك النوميد استغلال هذه المقومات الاقتصادية المطلوبة في الحوض المتوسط(شنيتي، التوسع. 1986: 10).

عرفت ظاهرة البداوة بالبلاد المغاربية تطورات مهمة خلال فترة الاحتلال الروماني، هذا الأخير الذي كان حاضرا كما سبق ذكره بخلفيات اقتصادية ومنظومة اجتماعية - ثقافية تتعارض مع منظومة البدو المغاربة وخصوصا الصحراوية، القائمة على رحلة الربيع شمالا ورحلة الخريف جنوبا، هذا الاختلاف سيؤدي إلى تصادم عسكري وثقافي، ولفهم هذه التطورات سنحاول هنا التركيز على أهم القبائل شبه الصحراوية التي ذكرتها المصادر العائدة إلى فترة الاحتلال الروماني، ونخص بالذكر هنا: الموسولام (Musulames)، الجيتول (Gétules) والغرامنت (Garamantes).

2-1- الجيتول ومجالاتهم الجغرافية:

ذُكر الجيتول تحت تسمية عامة و واسعة مجاليا، حيث ورد اسمها في المصادر القديمة بصيغة (Gaetuli) وأنها أقوام بدوية أصيلة البلد، وتذهب بعض الدراسات للقول أنها تحوير لكلمة "إيڤدالن" - Igueddalen- الأمازيغية أو "مربوا البقر"، كانت تنتجع في شريط شبه صحراوي يمتد من جنوب موطن الأوتولول (Autololes) بواد سوس غربا إلى غاية خليج السرت شرقا(Desange, 1990: 1175) . أما مجالها عموديا فقد اختلف المهتمون في تحديده، ففي الوقت الذي يمدد إقليمهم نحو الشمال حتى مدينة مداوروش في الجزائر فإن البعض يؤخرها نحو جنوب الأوراس (Trousset, 2012: 02) ليشمل السهول والسفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي وهي مَراعٍ بين التل والصحراء، وعليه فإن جزءاً من الموسولام محسوبون على جيتوليا(بوشارب، 2014: 73)، ومهما يكن فإن الإجماع بين المؤرخين يؤكد بقاء هذه الأقوام الجيتولية على تماسّ الممالك النوميدية والمورية جنوبا(Desange, 1962. Catalogue) وكذلك خلال فترة الاحتلال الروماني.

اتسم الجيتول بطابع البداوة خلال كل الفترة القديمة وخلال الفترة الوسيطة تحت مسمى الجدالة، فلم تكن لهم دولة قائمة ككيان سياسي، ولكن تجمعات قبلية تحتكم إلى أعراف تنظيمية متجذرة، بل وصفتهم المصادر اللاتينية بالأقوام المتجولة (Vagi Getuli) (Trousset, 2012 : 02)، حيث كان لها طابعها الاقتصادي الخاص، إذ تعاملت مع جيرانها الشماليين المور والنوميد في المناطق التلية وحتى الغرامنت نحو الشرق، بل ذكروا عند تيتوسليفيوس بأنهم شكلوا فرقا مهمة في جيش حنبعل خلال الحرب البونيقية الثانية (218-202 ق.م.) تحت قيادة شخص مسمى إسالكا (Isalca) حين كلفهم حنبعل بمهام عسكرية ودبلوماسية

(Tite live, 1930 : XXIII,18,1)،كما استغلهم الملك ماسينيسا في جيشه خلال عمليات استرجاعه الأراضي من القرطاجيين، كما سعى إلى تثبيتهم في تجمعات سكنية على حدود المملكة من أجل استغلالهم في الفلاحة(حارش، 2013: 148)، كما استند إليها الملك يوغرطا خلال حربه ضد الرومان ما بين 212 ق.م – 105 ق.م.(العقون، 2008: 164 -165)، كما استغلتهم السلطة الرومانية بالجيش لاحقا بالفرق المساعدة المكونة من الأهالي(شنيتي، التوسع. 1986: 11)،و الجيتول كانوا نوعين؛ فبدو دائمو الترحال وشبه بدو يلجؤون إلى التحرك في فترات الحاجة الكبرى، وقد انتجع الجيتول في الشريط المذكور سابقا في إقليم بوابات الصحراء والسهوب الكبرى و حتى الهضاب، إلى غاية وصول الرومان المنطقة حيث ستتعرض هذه المجالات إلى احتلال الأمر الذي يؤدي إلى ردة فعل جيتولية ضد التوغل الروماني في مجالاتها الحيوية.

2-2- الغرامنت ومجالاتهم الجغرافية:

يُعتبرالمؤرخ الإغريقي هيرودوت (481 ق.م – 421 ق.م؟)أقدم المؤرخين القدامى تناول الغرامنت إذ يصف لنا الغرامنتيين بالشعب العظيم العدد، الذي يسكن على بعد يقدر بعشرة أيام من أوجلة التي تقع غربهم، ويبعدون عن موطن اللوطوفاج بمسافة تقدر بثلاثين يوما سير، كما يعتبرهم من الشعوب التي تقطن المناطق الداخلية لليبيا، و تقع بين الكثبان الرملية لمصر العليا ومضيق جبل طارق أي أعمدة هرقل (هيرودوت، 1967: 41 – 42). وبعده الجغرافي سترابون (Strabon) (60ق.م– 20م)الذي حدّد في مؤلفه "الجغرافي" الموقع الجغرافي

للغرامنتيين بنوع من الدقة والتفصيل الجغرافي إذ يضعهم شمالا لإثيوبيا ينفي أغلب جهات هو إلى جوارهما لفيروسيون و الزنوج، أمّا إلى الشمال منهم فتقع أرض الجيتول، ويضيف معلومات أخرى في الكتاب السابع عشر (Géographie) قائلا : " وراء الشاطئ الممتد من قرطاجة إلى أرض الماسيليين تقع أرض الليبو-فينيقين الممتدة حتى أرض الجيتول الجبلية حيث تكون الأرض الليبية، أما الأرض التي وراء أرض الجيتول تكون أرض الغرامنتيين (Garamantes) وهي موازية للسابقة ومنها يجلب الكارخيديون (القرطاجيون) الأحجار ويُقال إن الغرامنتيين يبعدون عن الإثيوبيين المجاورين للمحيط برحلة تسعة أو عشرة أيام، و يبعدون عن واحة آمون[3] خمسة عشر يوما ".

يُستنتج من هذه الأخبار التاريخية والجغرافية المبعثرة في المؤلفات الكلاسيكية القديمة أن الموطن الأصلي للغرامنت هو إقليم فزان جنوب ليبيا الحاليّة و الذي يشمل بعضا من الصحراء الوسطى الشرقية للجزائر حيث امتد قديما من إقليم برقة و واحة الكفرة شرقا إلى غاية العرق الشرقي الكبير بصحراء الجزائر غربا، أمّا شمالا فتحده جبال نفوسة و تدخل فيها مرتفعات جبالا لصالحا تومسلاتة، و واد يزازمت (Zazamet) و واحة بونجموجالو (Djalo) ،وجنوبا يصل إقليم فزان إلى غاية هضبة تيبستي و جبلطومو الفاصل بين ليبيا و التشاد(سليمات، 1969: 09).

3- سياسة الحدود السياسية و الأقاليم الإدارية:

يمكن تأريخ البداية الأولى لعملية ترسيخ الحدود السياسية في التخوم الصحراوية ببلاد المغرب من طرف السلطة الرومانية وبصفة نهائية إلى فترة حكم الأسرة السيفيرية (192 – 235م)، لكنها كانت عمودية، حيث وضعت عالمين متوازيين، فالعالم الروماني بشمال خط الليمس وعالم متمرد جنوب الليمس، إذ أُفترض أن هذا الجنوب تُرك للبدو الرحل الشبه صحراويين والصحراويين، هذه الشعوب التي ذُكرت في المصادر القديمة في وعاءات عامة شملت كل من: الناسامون، الغرامنت، الجيتول. (**أنظر خريطة رقم02**)

[3] واحة أمون يقصد بها واحة سيوة

الخريطة رقم 02:

خريطة توزيع القبائل الصحراوية والشبه صحراوية ببلاد المغرب القديم وتحركاتها



المصدر: Trousset, (P.). (2012).

(بتصرف صاحب المقال)https://journals.openedition.org/encyclopedieberbere/2750,parag.3

3- 1- خط الليمس وسياسة الكنترة (Centurae):

سياسة إرساء ا لحدود السياسية في الأراضي المحتلة كانت حاضرة خلال فترة الجمهورية إلا أن أولى ملامح هذه السياسة الرسمية الميدانية تعود إلى فترة حكم الإمبراطور تيبريوس (14-37 م)، بالجنوبي الشرقي لتونس الحالية ثم شمال شط جريد وأخيرا غرب تونس الحالية حوالي 30 للميلاد(Le Bohec, 2013 : 139 – 140)فكانت البداية بمدّ الطريق الرابطة بين تاكاب (Tacapae) قابس نحو أميدرة (Ammaedara) حيدرة التونسية حاليا، هذه الطريق التي اخترقت الكثير من الأراضي الخاضعة للقبائل المحلية، هذا الإجراء تزامن وثورة الموسولام بقيادة تاكفاريناس كما سبق ذكره، إذ قسمت الموسولام إلى قسمين؛ شماليون وجنوبيون، وانتزعت منهم الأراضي الزراعية الخصبة وطرد جزء منهم نحو الجبال وأخرى نحو المناطق الصحراوية(العقون، 2008: 179)،ولتثبيت هذا الحد اعتمدت السلطة الرومانية على سياسة الكنترة (Centurae) أو ما يعرف بمسح الأراضي، هذه الأراضي التي كانت تابعة مشاعا للقبائل المحلية، وحُولت إلى ممتلكات الشعب الروماني (Ager Poblicus)، حيث ارتكزت هذه السياسة على إخضاع هذه الأراضي للتقسيم بغرض إحصائها وتوزيعها على المنتفعين الرومان أو المرومنين في فترة لاحقة أو تأجيرها، ومن ثم يتسنى للدولة مراقبتها وتحديد أنصبتها من محصولها(شنيتي، التغيرات. 1984 : 55)، والأمثلة كثيرة ؛ فبالإضافة إلى الموسولام، فإن قبائل أخرى تعرضت لعقوبة مصادرة الأراضي في السهوب ورُسمت حدودها ,أشهرها تلك الممتدة خلال الفترة ما بين 100 – 116م، حيث مست قبائل الموسوني والكابستان(عيساوي، 2010: 401)،كما سبق ذكرها، وقد عُثر على إشارات ايبيغرافية تؤكد أن عملية المصادرة

كانت بالقوة، حيث عثر ببلاد القورزي(El-Ghoursi) بضواحي تبسة على نقيشة تذكر بأن مجموعة من أراض رعوية وأخرى زراعية ومنابع مياه تمت مصادرتها من طرف ضابط صف وبأمر من الحاكم العسكري (Legatus AE, 1946: 38)ويرجح أن مثل هذه الإجراءات كانت شائعة خلال فترة حكم الإمبراطور سيبتيميوس سيفيروس الذي أعطى صلاحيات واسعة لحكام المقاطعات في هذه القضية(Le Bohec, 2013 :77)،هذه العمليات تماشت في العموم مع تحركات الفرقة الأغسطية الثالثة وجهازها الميداني المتمثل في خط الليمس، الذي كان قاعدة أساسية لما يُعرف بالحدود السياسية و الأقاليم الإدارية التي عملت على احتلال أوسع وإخضاع أكبر و تعبيد طريق سياسة الرومنة[4]، حيث وفرت شروط الاستغلال الزراعي لصالح الرومان على حساب المغاربة، بالإضافة إلى ضمان تفكيك التحالفات القبلية، فأُبعدت بعض القبائل قسراً مثلما حدث مع الموسولام وقبيلة النبجني بشرق الأوراس(شنيتي، التوسع. 1986: 12)، كما سعت السلطة الرومانية إلى زرع تجمعات سكانية في هذه المجالات من أجل مراقبة واحتواء العناصر المحلية، أو عزل المناطق الواقعة تحت التأثير الروماني عن المناطق الثائرة سواء في الجبال أو التخوم الصحراوية، فاختلفت طبيعة هذه التجمعات حسب مكوناتها الإثنية ومقاماتها القانونية(خالد، التوسع. 2013: 124 – 131)، وقد نفذت الطرقات دورا مهما في هذه العملية، حيث كانت شريان الليمس؛ إذ سمحت بالفصل بين المناطق وكذا التنقل السريع للفرق العسكرية وكذا لراحة المواكب الرسمية، كما ضمنت حركة تنقل السلع المنتوجات الفلاحية والمعادن إلى الموانئ بسرعة وبأمان وبأقل تكلفة، وهي الفكرة التي ذهب إليها الباحث بييارسالاما (Salama, P.) بالقول أن خط الليمس الإفريقي أنشئ لغرض اقتصادي أكثر منه أمنيا دفاعيا(Salama , 1951: 18 – 19) ، نفس الفكرة ذهب اليها شارل بيكار (Picard ch.) بقوله إن الليمس في بلاد المغرب لم يكن حدا سياسيا كونه لم يضم كل الأراضي، لكنه كان حدا جغرافيا مسايرا للمناطق الملائمة للزراعة.

فتلك المحاذية لخط الليمس وأخرى في عمق الأراضي المحتلة، فمثلا في جنوب إقليم طرابلس عملت السلطة الرومانية على وضع حدود بينها وقبائل زاموتشي (Zamucii) و مودوتشيوي (Muduciuvii)، و يبدو أن الإجراء كان بخلفية العلاقات الحسنة التي كانت بين الرومان مع إحدى هذه القبائل(Ben Abou, 1976: 170)، لكن الهدف كان ضمان تفكك الصلة بين هذه القبائل نفس الإجراء كان حاضرا مع قبائل أزروج (Azruge) بإقليم نفزاوة، حيث عُثر بالمنطقة على نقيشة رومانية حدودية تعود إلى فترة حكم ترايانوس(Trousset, 2012: 08)، نفس الظاهرة سُجلت بأكثر توثيق في مناطق التل مثلما كان الحال مع قبيلة سبعل، وكذا قبائل المازيس بضواحي أوبيدومطانجيتانوم (الشلف حليا)، وكذلك مع قبائل الزيميز (Zimiz) التي كانت فرع من الموسولام، نفس الكلام حضر مع قبائل نقاوس (Nicivibus)(خالد، 2020: 116)كل هذه القبائل اتصلت بها السلطة الرومانية واتفقت معها على وضع حدود لمناطق النفوذ، ونفس الحال وقع مع قبائل التيزيبنسيس (Tisibenenses)

[4]. خط الليمس (Limes) يقصد به في اللاتينية الدرب الغابي، إرتبط أصلا بالفلاحة كفاصل بين المزارع، لينتقل استعماله إلى الميدان العسكري ويأخذ طابع الحدود المحصنة. للمزيد أنظر(Baradez, 1949: 130 – 133)

بالجنوب الغربي لماسكولاي (Masculae) خنشلة حاليا(François, 1992 : 127) هذه الاتفاقيات كان هدفها تسهيل مراقبتها والتأثير عليها وتشتيت القوة الديمغرافية للعنصر المحلي من جهة أخرى(Leveau, 1975 : 864)، هذا الإجراء سيضر بالقبائل شبه البدوية، حيث ستمنع من التردد على المراعي الشمالية التي تعودت عليها، فتغير من وجهتها نحو السهول الغربية ومرتفعات الأطلس الصحراوي ورفوف الصحراء(شنيتي، التوسع. 1986: 12)،هذه القبائل نفسها ستبدأ رحلة العودة إلى أقاليمها وأراضيها بداية النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد بعدما تقهقر نفوذ الرومان بالمنطقة(خالد، 2020: 207).

بالعودة إلى قضية محاولات السلطة الرومانية وضع نسيج اجتماعي يتكفل بالاحتواء للعناصر المتحركة من خلال زرع مراكز عمرانية مع امتيازات اقتصادية واجتماعية بمجموعة من قوانين زراعية خاصة بالمقاطعات الإفريقية، وأشهرها تلك التي ارتبطت بالضياع الكبرى (لاتيفوبندا) التي أقيمت غالبا على أنقاض قرى ومزارع الأهالي(شنيتي، التوسع. 1986: 13 - 14)، فإن نتائج العملية كانت نسبية لعدة عوامل تتصدرها صعوبة مناخ المنطقة والخطر الأمني جعلها قليلة الطلب من طرف المعمرين الرومان والإيطاليين وباقي الأجانب، بل شهد حالات انسحاب المعمرين منها(شنيتي، الاحتلال. 1985: 113)، الأمر الذي تداركته السلطة بتعمير هذه الإقليم من خلال مراكز عمرانية بمحتوى إثني محلي، فكانت البداية بقدماء المجندين ثم فئات ترومنت بمسارات اجتماعية وثقافية كتحصيل للأمر الواقع(Rebuffa, 2005: 193 – 233)، فكانت نخبة لهذه " المراكز " العمرانية الجديدة، حين التحق بها السكان المحليون الذين نزلوا اليها من المناطق الجبلية والسهوب واستغلوا بعض القوانيين الزراعية مثل (مانكيانا و هادريانا(Le Bohec, 2013 : 138 – 139)، ليرتقوا في السلم الاجتماعي والبحث عن استقلالية محلية، هذه الحقيقة برزت جليا خلال جلاء القوات الرومانية و مصالحها بتراجع خط الليمس خلال النصف الثاني للقرن الثالث للميلاد إلى شمال إقليم الحضنة تاركين مدنا لصالح " العائدين من الصحراء "

(Morizot, 2014: 164)، هذه المدن التي أشارت إليها المصادر الأثرية و مؤلفات الرحالة العرب الأوائل بالقول إنها كانت متطورة عمرانيا ونشيطة اقتصاديا بفضل تفاعل العائدون من الصحراء مع سكانها المرومنون اللذين أبوا الفرار مع الرومان(شنيتي، 1999: 185).

كان منطلق تصور السلطة الرومانية لخط الليمس كحدود إيجابية بين عالمين وجب أن يتعاملا في حدود حسن الجوار، هذا التصور عرف تطورا ، عكس ما كان عليه هذا الخط في البدايات الأولى لما كان ردعيا

(Romey, 1998 : 31)، لكن هذا التصور لم ينجح كون هذه الحدود كانت متغيرة ومتطورة على حساب أراضي القبائل المحلية ومصالحها الحيوية، لذلك ستعرف هذه الحدود صيغة عسكرية خلال القرن الثالث للميلاد، بسبب الضغوطات الديموغرافية القادمة من الجنوب على شكل هجرات سلمية و أخرى عسكرية

(خالد، 2020: 206 – 207)، هذا الواقع شجعته طبيعة النمط الاقتصادي والاجتماعي لكلا الطرفين حيث انتهى بعدم اعتراف السكان المحليين بالقانون الروماني الخاص(خالد، المقاومة. 2012: 39)، رغم المحاولات الحثيثة من طرف السلطة الرومانية بنظم إدارية واجتماعية، حيث استعانت بعناصر محلية لضمان الاستقرار(خالد، التوسع. 2014: 131)كما سبق ذكره، مثل منح أراضي داخل الهضاب والسهوب لقدماء الجيش من السكان المحليين وجعلهم حواجزَ اجتماعية بخلفيات عسكرية مع استغلال اقتصادي بعدما أن أرغمتهم على التحول إلى

النشاط الزراعي، في هذا السياق ذهب الباحث لوبوهيك(Le Bohec) للقول أن الهدف من وضع الحدود السياسية والإدارية كان لصالح الساكنة المحلية بالتخفيف من نظام البداوة وحصره في مجالات محددة والاستثمار في الزراعة وخصوصا الشجرية كالزيتون والكروم(Le Bohec, 2013 : 137)، كما سعت إلى التجنيد من البدو شبه الرحّل وتكليفهم بحراسة خط الليمس، حيث سجلت حالات بقلعة ديميدي و قلعة بونجم (Romey, 1998 : 02 - 03)، كما عُثر على نقوش شواهد جنائزية تحمل أسماء جيتولية جندت بمقاطعة البروقنصلية (Gascou, 1970: 724 – 728)، إلا أنها فشلت نسبيا في استمالة هذه التجمعات الواقعة خارج خط الليمس المتراجع نحو الشمال بداية من منتصف القرن الثالث للميلاد(عمران، 2012: 75)، حيث اكتفت السلطة بعد هذا التاريخ على مراقبة المسارات والمعابر الكبرى لهذه القبائل الصحراوية، الحالة التي تتطور إلى انكماش سيطرتها وتراجع نفوذها نحو الشمال**(انظر الخريطة رقم 03)** وتفسح المجال للقبائل بالعودة إلى أراضيها بعدما طردت منها خلال الزحف السيفيري، هذه الظاهرة التي أطلق عليها الباحث مارسيل بن عبو : " العائدون من الصحراء "ويقصد هنا العودة إلى الحضنة و الزيبان وجنوب متليلي في موريطانيا (Lassere, 1999: 597) أو بالعودة إلى الأوراس والنمامة وجنوب قفصة(Ben Abou, 1976 : 212) ، بل سُجلت حالات توغل في المناطق الداخلية مثل جنوب أوزيا (سور الغزلان) و رابيدوم (قصر جواب) ، و حتى جنوب لاماسبا (مروانة) (خالد، 2020: 207)، هؤلاء العائدون من الصحراء نحو الشمال أطلق عليهم في المصادر القديمة وخصوصا القرنين الرابع والخامس برجال أو أقوام الجنوب(Modéran, 2003: 279).

4- أشهر التحالفات القبلية ضد السلطة الرومانية ببلاد المغرب:

4- 1- التحالف الغرامنتى الجيتولي (20-19ق.م):

تذكر المراجع التاريخية بأن حملة البروقنصل كورنيليوس بالبوس ضد الغرامنت و الجيتول خلال فترة 20 إلى 19 ق.م كانت عملا تأديبيا ضد هاتين الأخيرتين[(5)]،حيث أشارت بعض الدراسات إلى أن مسارات الحملة و الاستراتيجية التي اتّبعها طرف الرومان توحي إلى فكرة أن الحملة كانت على مسارين؛ ففرق توجهت غربا نحو أقاليم الجيتول بالحضنة مرورا بأوراس النمامشة، وفرق أخرى انطلقت من سبراطة باتجاه جرمة معقل الغرامنت مرورا بفزان، كما سبق وذكرنا(جاب الله، 2024: 46). هذا الإجراء يجعلنا نعتقد بأنه كان رد فعل من موقف مشترك للجيتول والغرامنت ضد محاولة توغل نحو الداخل، هذا الاعتقاد سيتأكد لاحقا ويوثق تحالفات أخرى بين الشعبين.

تشير المصادر الايبيغرافية بأن مملكة الغرامنت ستعرف أولى الضربات الرومانية القوية خلال حكم الأسرة الفلافية (69-96م) حين شكلت تهديدا على مدن الساحل السرتي الكبير وضواحيه وخصوصا مع تحالفها مع الموسولام " الشرقيون " باعتبارهم أحد فروع الجيتول، و كانت أولى هذه النكسات مع حملة الليجاتوس (legatus) فاليريوسفيستوس حوالي سنة 73 للميلاد، حين استغل صراعا داخليا بين المدينتين ذواتي المقام

(5). سجلت الكثير من حالات حملات عسكرية رومانية خارج خط الليمس بخلفية عقابية ترهيبية للسكان الذين ثاروا ضد الحضور الروماني.

القانوني الحر، و هما لبتيس (لبدة) و أويا (طرابلس)(Ben Abou, 1976 : 101)، حيث حظيت الأولى بدعم مملكة الغرامنت لتتدخل السلطة الرومانية وتستغل الفرصة للتوغل نحو الجنوب لدفع قبائل الغرامنت نحو الجنوب أكثر والاستيلاء على معابر بوابات الصحراء(Pline, 1850 : V,5,38)، هذه المحاولة قابلتها ردة فعل عسكرية قوية من طرف الغرامنت، وهو الأمر الواضح في الأخبار الايبيغرافية الرومانية، حيث قرر الإمبراطور فيسباسيانوس (69-79م) تكليف شخصية عسكرية محنكة وهو دوميتيوستولوس(Domitius Curvius Tullus)حين أرسله إلى إفريقيا بصفة ليقاتوس وكيل البريتور، في هذه المهمة خلال سنتي 73-75م (CIL, XI, 5211)،هذه الحملة أعقبتها إجراءات عسكرية وأمنية، أهمها تقدم (أو نقل) الفرقة الأغسطية الثالثة من (Ammaedara) حيدرة غربا نحو (Thevest) تبسة ، هذا الإجراء كان دليل على نجاح فيسباسيانوس في دحر القبائل الجرمية، حيث قطع خط التواصل بين الجنوب الشرقي باعتبارها مجالات الجرامنت عن الجنوب الغربي و هي مجالات الموسولام لاعتبارها إحدى فروع الجيتول الشماليين، هذا الإجراء الروماني ترجم مخاوف السلطة الرومانية من تحالفات جديدة بين هذه الشعوب المحلية مع احتمالية التحاق أخرى مثل المور والنوميد غربا(Trousset, 2012 : 05)، حيث فتحوا طريقا عمودية من تبسة باتجاه هيبوريجيوس (عنابة) شمالا، ثم تتفرغ بعدها لمراقبة الأوراس موطن الموسولام وكذا ممر القنطرة معبر القبائل الصحراوية القادمة من الحضنة باتجاه التل.

4 - 2- تحالف الجيتول مع الموسولام والمور:

شكلت انتفاضة الجيتول سنوات 3 إلى غاية 6 م ضد التوغل الروماني في موريطانيا كما سبق ذكره خلال فترة حكم الملك يوبا الثاني، حيث هددوا نظامهم الاجتماعي، فكانت منعرجا مهما في علاقات الموسولام و السلطة الرومانية، وهذا منذ مساندتهم للملك يوغرطا حيث تحفز الموسولام أكثر ليعلنوا موقفهم الرافض للتواجد الروماني، فكانت البدايات حوالي السنة التاسعة للميلاد لتعرف الانتفاضة منعرجا حاسما خلال سنة 14 م للميلاد، وهو تاريخ مد الطريق الروماني بين قباس باتجاه قفصة غربا مرورا بحيدرة أي حوالي 200 كلم (Romey, 1998: 30)، لتعرف الانتفاضة أوجها بداية 17 للميلاد حين عرفت قائدا عسكريا محنك وباستراتيجية محكمة اسمه تاكفاريناس ليعلن عن ميلاد ثورة شاملة امتدت من 17 م إلى غاية 24 للميلاد حين التحق بها المور بقيادة مازيبا (Mazippa) الذي قدم له دعما لوجيستيكيا وبشريا، بالإضافة إلى الغرامنت الكينيثيون القاطنين خلف بلاد السرت الصغرى، و هم محسوبون على الغرامنت(Desange, 1962 : 46)، إذ وصفهم المؤرخ الروماني تاكيتوس في حولياته بأنهم شديدو البأس في ميادين المعارك(Burnouf, 1859 : 123)،كلها اجتمعت ضد سياسة التهجير القصرية وتثبيت مستوطنات رومانية وسياسة القهر والاستغلال وسوء المعاملة التي انتهجها الرومان ضد أهل البلاد، وقد حررت هذه الثورة الكثير من الأقاليم ولو مؤقتا من قبضة الرومان مثلما كان الحال مع الإقليم الممتد من واد ملاق معقل الموسولام إلى غاية عمق إقليم طرابلس موطن الغرامنت

(Trousset, 2012 : 05)، الأمر الظاهر في كلام تاكيتوس بافتخاره بنجاحات أمبرينيوس (Apronius) بالقول:" ... حيث رد تاكفاريناس وأنصاره إلى صحاريهم" (Tacite, Annales. III, 21)، والجدير ذكره هنا هو استمرار هذا التحالف بعد القضاء على تاكفاريناس حتى نهاية حكم الإمبراطور كلاوديوس(41 م -54م)

(Ait Amara, 2014 : 80 – 81)نفس الظاهرة ستشهدها منطقة السفوح الجنوبية لسلسلة جرجرة إبان ثورة فيرموس خلال الفترة الممتدة من 372 م – 375م، إذ التحقت بثورته قبائل جبل بوطالب غرب الأوراس وحتى الجنوب الغربي أين دعمته قبائل المازيس التي كانت تقطن التلال الوهرانية (عمران، 2012 : 80).

4 - 3- تحالف المورمع الغرامنت:

تشير بعض الشواهد الأثرية (الايبيغرافية) إلى أن التوغل الفلافي (Flavien) في جنوب مقاطعة البروقنصلية ودحرهم للنفوذ الجرمي الموسولامي نحو أقصى الجنوب، وإن صحَّ كلام تاكيتوس؛ فإن الغرامنت بعد إخماد ثورة تاكفاريناس أرسلوا وفدا إلى روما أين أرادوا استعطاف الإمبراطور من أجل العفو عنهم جراء تحالفهم مع تاكفاريناس(Tacite, Annales. 2004 : V) ، وقد تزامن مع أعمال عسكرية على شكل ثورات في الموريطانيتين(Cagnat, 1892, 39)،حيث تتحدث نقيشة مؤرخة بسنة 75 للميلاد (CIL , IX , 4194)عن تكليف قائد عسكري برتبة ليغاتوس و هوسونتيوس كايكيليانوس(Caecilianus Sentius) من أجل استرجاع الأمن بالمنطقة (الموريطانيتين) و تظهر أهمية هذا التكليف في منحه كامل الصلاحيات العسكرية

(Ben Abou, 1976: 103)، حيث جمع مهمة اثنين من وكلاء الإمبراطور تحت رتبة (Dux)، هذا الإجراء نادر اللجوء إليه لما يشكله من خطر على سلطة المركزية(خالد، 2020: 127)، هذه الثورات فُهمت على أنها وعي تحرري مبني على دراية بضعف السلطة الرومانية ، بالإضافة إلى نوع من التضامن مع القبائل الجرمية و الموسولامية جراء ما يتعرضون له من ضغط روماني، هذه الظاهرة كانت حاضرة حتى الفترة المتأخرة من التاريخ القديم ببلاد المغرب، إذ سُجلت تحالفات مورية مع سكان إقليم المزاق(Byzasium) المحليين، وخصوصا مع قبائل لواتة التي تعتبر فرعا من الناسامون(Modéran, 2003: 647).

5- قراءة في ظاهرة التحالفات القبلية:

بغض النظر عن المغالطات التي وردت في المصادر اللاتينية خصوصا، حين حاولوا تصوير الساكنة المحلية بالهمجية وقطاع الطرق وإبعاد العمق الحضاري عنها والوعي بالتطورات السياسية العالمية فإن ظاهرة التحالفات القبلية ضد الاحتلال الروماني كانت حاضرة في كل بلاد المغرب، ما يجعلها مؤسسة على وعي تحرري مبني على دراية بضعف السلطة الرومانية.

هذه التحالفات كانت منطقية وضرورية للأسباب التالية:

- الامتداد الجغرافي الواحد والترابط الاثني والثقافي و الاقتصادي الذي يربط هذه القبائل منذ فجر التاريخ أسهم في نجاح هذه التحالفات القبلية ولو لفترات.

- المصير المشترك بعد إقدام السلطة الرومانية على التضيق على حركة بعض الشعوب والاستغلال الاقتصادي للأراضي و مصادرة المجالات والأملاك تباعا، إذ عملوا على تجاوز أو تأجيل خلافاتهم الداخلية، هذه التحالفات كانت منسقة ومتزامنة ومتوازية.

- تسجيل هجرات بشرية لبدو رحل صحراويين خلال النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد، أدى إلى تداخل فيما بينهما لكن بدون صدامات، هذه الظاهرة سُجلت خصوصا في مقاطعة موريطانيا القيصرية، إذ رد الباحث لاسير(Lassère J.M.) ذلك إلى التكامل الثقافي لسكان هذه المناطق، كما أنها قامت ضد عدو مشترك.

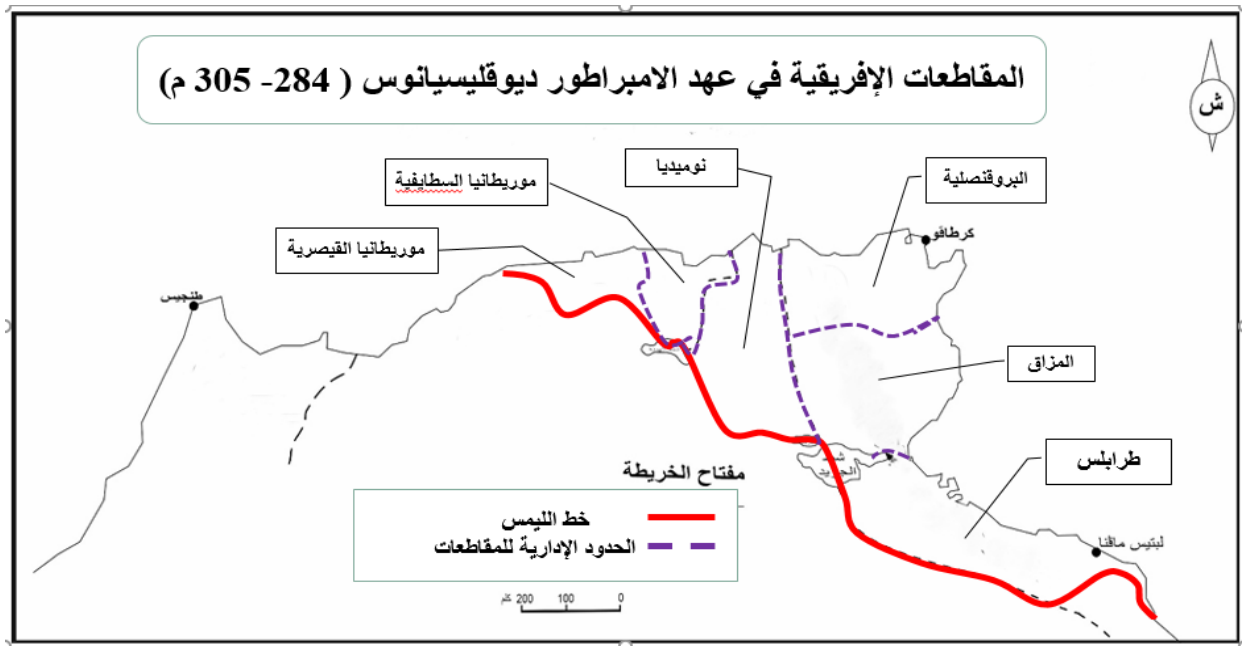
- لجوء السلطة الرومانية بداية القرن الثالث إلى الاستعانة بشريحة من الساكنة المحلية المتمثلة أساسا في قدماء الجنود بمنحتهم قطَع أراضٍ في مناطق التّماسّ والتي سعت بذلك إلى الاستقطاب الاجتماعي للناقمين ببراغماتية أمنية واقتصادية[6]الإستراتيجية التي كانت نتائجها نسبية على المدى القريب وعكسية على المدى البعيد.

- استمرارية النشاطات الاقتصادية في التجمعات السكنية التي كانت متاخمة لخط الليمس بعد جلاء الفرق العسكرية والمستوطنين الرومان منها، في حين بقيت شريحة المرومنين ضمنت الاستقرار الإداري.

- الاختلاف والتباين في قدراتها العسكرية في العدة والعتاد وحسب التخصص أملت عليها ضرورة اجتماعها من أجل حظوظ أوفر، إذ وفرت خيارات عسكرية أكثر لمواجهة قوات رومانية كثيرة ومتميزة.

الخريطة رقم 03:

المقاطعات الإفريقية في عهد الإمبراطور ديوقليسيانوس (284 – 305م)



المصدر: إعداد صاحب المقال

[6]. استعملتهم على شكل حزام أمني متقدم لاستشعار الخطر، بالإضافة إلى توفير مداخيل اقتصادية.

الخاتمة:

عملت السلطة الرومانية منذ وضعت قدمها الأولى ببلاد المغرب القديم عام 146 ق.م. على احتلال المنطقة بالقوة العسكرية ثم إخضاعها بمجموعة من تنظيمات سياسية وإدارية وبخلفيات أمنية واقتصادية، ومن أهمها وضع الحدود والتقسيمات الإدارية وخصوصا بالمناطق الداخلية والشبه صحراوية مواطن قبائل البدو الرحل.

اعتمدت السلطة الرومانية خلال توسعاتها على منظومة عسكرية ميدانية بخط الليمس العازل بين العالم الخاضع للرومان وذلك الخارج عن طاعتهم، حيث سعت إلى تشتيت التجمعات القبلية المحلية واستغلال مقدراتها الاقتصادية والبشرية بعد مصادرة أملاكها، كما راهنت على مشروع الاستقطاب الاجتماعي للساكنة المحلية وخصوصا الناقمة من حضورها.

اصطدم التوغل الروماني في العمق المغاربي بمقاومة شديدة من طرف قبائل التخوم الصحراوية، إذ قدّم كل من الغرامنت، الموسولام، الجيتول و المور، نماذجا مهمة في هذا المجال على شكل تمردات، انتفاضات، ثورات غير منظمة وصولا إلى ثورات على شكل تحالفات قبلية.

لجوء بعض القبائل البدوية الشبه صحراوية إلى التحالف متجاوزة الحزازات السياسية التي كانت قائمة فيما بينها، إذ توافقت من أجل مواجهة العدو المشترك. يؤكد حقيقتها باعتبارها جزءا من النسق الاجتماعي والسياسي التاريخي للقبيلة في تاريخ بلاد المغرب، إذ ظلت القبيلة إطارا ترابيا وقانونيا عبر التاريخ.

أسهمت استراتيجية المقاومة في شكل تحالفات قبلية بنسبة كبيرة في إضعاف النفوذ الروماني بداية منتصف القرن الثالث وتقهقر سيطرته الميدانية وإجباره على الانسحاب نحو الشمال بمنحى شمال شرقي، الواقع الذي ترجمته إصلاحات الإمبراطور ديوقليسيانوس وخصوصا ما تعلق بتقليص مجال السيطرة الرومانية دليلا على هذا الضعف، إذ قرر التراجع مقابل تكثيف تمركز عسكري جديد في الأقاليم الاستراتيجية عوض انتشار واسع وهشّ، مع اعتماد تسيير إداري جديد. (الخريطة رقم03)إذ هدف من ذلك إلى تقليل الضغط القادم من الجنوب، من خلال فتح مجالات جغرافية يتنفس فيها القادمون من خارج الليمس، حتى أنهم اجتاحوا بلاد التل واستعاد البدو حريتهم واسترجعوا مجالاتهم التي صودرت منهم خلال القرنين الأول والثاني للميلاد.

تسجيل ظاهرة استمرارية نشاط المراكز التي فرَّ منها الرومان تاركيها لصالح " العائدين من الصحراء "، هذه المدن التي أشارت إليها المصادر الأثرية أولا ثم مؤلفات الرحالة العرب الأوائل بالقول إنها كانت متطورة عمرانيا ونشيطة اقتصاديا بفضل تفاعل العائدين من الصحراء مع سكانها المرومنين الذين أبوا الفرار مع الرومان.

كل هذه التطورات التي عرفتها بلاد المغرب تزامنت مع مشاكل كانت تنخر جسد الإمبراطورية كالصراعات الداخلية والضغوطات الخارجية على حدود باقي المقاطعات في أسيا وأوروبا، الأمر الذي دفع السلطة الرومانية

إلى المغامرة بمراجعة استراتيجيتها العسكرية والاجتماعية ببلاد المغرب، الحدث الذي اعتبر بداية النهاية للرومان ببلاد المغرب.

البيبليوغرافيا:

باللغة العربية

-المصادر

1. كريسبوس ساليستيوس (1997). حروب يوغرطا.ترجمة محمد الهادي حارش. الجزائر : دار هومه.
2. هيرودوت (1967).التواريخ. ترجمة فهمي خشيم. طرابلس : منشورات دار مكتبة الفكر.

-الدراسات(كتب ومقالات)

1. ابن عطى الله (ع.أ.). (2014). البدو في الجزائر ودورهم خلال العصور القديمة. أعمال الملتقى الوطني *"المدينة والريف في الجزائر القديمة"*.معسكر: مكتبة الرشاد للطبع والنشر.
2. بوشارب، سلوى(2014).أشكال التنظيمات الاجتماعية بالمغرب القديم من خلال المصادر المادية (دراسة في الأصول والتطور).*الحكمة للدراسات التاريخية*، المجلد (04) العدد02 . ص ص 52 – 75. الجزائر.
3. جاب الله، خالد آدم حميدة (2024). خطوط الليمس الدفاعية خلال العهد السيفيري ودورها في حماية إقليم تريبليتانيا 193 - 235م. *المجلة العلمية لكلية التربية*، المجلد 01، العدد 24. ص 42 – 56. جامعة مصراتة، ليبيا.
4. حارش، محمد الهادي.(2013). *مملكة نوميديا منذ أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد (دراسة حضارية)*.الجزائر: دار هومه.
5. خالد، محفوظ (2012). المقاومة الإفريقية ضد الاحتلال الروماني بين إشكالية الثورة والإنتفاضة.أعمال الملتقى الوطني "*المقاومة الجزائرية عبر العصور*".سطيف : منشورات المتحف العمومي الوطني. ص ص 36 – 46.
6. خالد، محفوظ (2014). التوسع العمراني للرومان في شمال إفريقيا "تأملات في مدى تأثير التنظيم الحضري في رومنة الجزائر القديمة.أعمال الملتقى الوطني"*المدينة والريف في الجزائر القديمة"* .معسكر،: مكتبة الرشاد للطبع والنشر.
7. خالد، محفوظ (2014). مقاومة القبائل المورية ضد الاحتلال الروماني خلال القرن الثالث للميلاد "بحث في العلاقات المورية الرومانية. *دراسات تراثية*، العدد الأول.197 - 218. جامعة الجزائر 2.
8. خالد، محفوظ (2019 - 2020).*المقاطعات الإفريقية خلال الفوضى العسكرية "بحث في تداعيات الأزمة وانعكاساتها على البروقنصلية وموريطانيا القيصرية*. (أطروحة دكتوراه). جامعة ألجزائر 02.
9. سليمات محمد (1969).*جرمة من تاريخ الحضارة الليبية*. مصراطة -ليبيا : دار مصراتي للنشر.
10. شارن، شافية. بشاري، محمد الحبيب ورحماني بلقاسم. (2007).*الاحتلال الاستطاني وسياسة الرومنة*. الجزائر: منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية.
11. شنيتي، محمد البشير (1984).*التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
12. شنيتي، محمد البشير (1985).*الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 ق.م - 40م)*. الطبعة 02. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
13. شنيتي م.ا(1986).التوسع الزراعي الروماني وظاهرة البداوة في الجزائر القديمة.*مجلة الدراسات التاريخية*.المجلد الأول. العددالثاني.ص. 08 -18.

14. شنيتي، محمد البشير(1999).*الجزائر في ظل الاحتلال الروماني؛ بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة المور*. الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.

15. عقون، محمد العربي (2010).*الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم*. الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية.

16. عمران، عبد الحميد (2012). ثورة فيرموس سنة 372م ضد الاحتلال الروماني.أعمال الملتقى الوطني " *المقاومة الجزائرية عبر العصور*".سطيف : منشورات المتحف العمومي الوطني. ص ص 73 – 87.

17. عيساوي، مها (2010) *المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم من عصور ما قبل التاريخ إلى عشية الفتح الإسلام*.(أطروحة دكتوراه).جامعة منتوري قسنطينة.

18. مصطفى، كمال (1966).*تاريخ ليبيا القديم*. ليبيا : منشورات الجامعة الليبية بنغازي.

باللغات الأجنبية :

-المصادر

1. AE : Année Epigraphique, 1946.(en ligne sur JSTOR)
2. CIL : Corpus des Inscreptions Latine, (VIII).(IX).(XI).
(en ligne sur https://cil.bbaw.de/en/homenavigation/the-cil/volumes)
3. Cassius Dion. (1856). Histoire Romaine. V. T. Gros (Trad.). Paris : Librairie Firmin.
4. Pline L'Ancienne. (1850). Histoire Naturelle, V. Emil Littré (Trad.).Paris : éd. Dubochet.
5. Strabon, (1880). La Géographie, II. T. Amédée (Trad.).Éd. Paris : L. H. cie.
6. Tacite. (2004). Annales, II. P. Renault (Trad.).Paris : la Bibliotheca Classica Selecta.
7. Tite live. (1930). Histoire Romaine, XXIII. T. Verger (Trad.).Paris: éd. Panckouk.

-الدراسات (كتب و مقالات)

1. Ait Amara, Ouiza (2014). La conquéte de la Maurétanie (39-42), dans « *la guerre dans l'Afrique romaine sous le Haut- Empire* ». collection CTHS Histoire N° 54. Pp 69-81.
2. Ben Abou, Marcel (1976). *La résistance Africaine a la romanisation*. Paris : Maspéro.
3.Ben seddik, Nacera(1979). *Les troupes auxiliaires de L'armée romaine en Maurétanie cesarienne sous le Haut empire*. Alger : société Nationale d'Edition et de Diffusion.
4. Burnouf, Gean Luis. (1859), *Les oeuvres completes de Tacite*. Paris : ed. Hachette et Cie.
5. Cagnat, Renée (1892). *L'Armée Romaine d'afrique et L'Occupation Millitaire de L'afrique sous les empereurs*. Paris : éd. Lévoux.
6. Francois, Jacques (1992). Propriété Imperiale et cités en Numidie méridionale. *CCGG*, (03), pp.123 - 139.
7. Desange, Gehane. (1962). *Catalogue des tribus Africaines de L'Antiquité classique à l'ouest du Nil*. Dakar (sénégal : Publication universitaire de Dakar.
8. Gascou, Jacques (1970). Le cognomen Gaetulus, Gaetulicus en Afrique Romaine. *Mélange d'Archéologie et d'Histoire*. 82 -(02). Pp.723 - 736.
9. Hugoniot, Christophe. (2000) *Rome en Afrique*.Paris : éd. Flammarion.
10.Lassere, Jean Marie. (1999), *Vbique Populus, peuplement et mouvement de populations dans L'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin des sévères*. Paris : éd. CNRS.
11. Le Bohec, Yann. (2013). *Histoire de L'Afrique romaine 146 av-439 ap*. Paris :A. et J. Picard.
12. Leveau, Philippe. (1975). paysans maures et villes romaines en Maurétanie Césarienne centrales. *M. EFR*, 87(02). Pp.857 - 871.
13. Mattingly, David. (2001). Nouveaux aperçus sur les Garamants, *Antiquité Africaine*, N° 37. pp. 45 – 61.
14. Modéran, Yves. (2003). *Les maures et l'afrique romaine (IV – VII siécle)*. Paris: éd. EFR.
15. Morizot, Pierre. (2014). La guerre en Afrique : aspects démographiques, dans « *la guerre dans l'Afrique romaine sous le Haut- Empire* ». collection CTHS Histoire N° 54. pp 145-166.
16. Picard, Charles. (1947). *Castellum Dimmidi*. Paris : éd. Boccard.

17. Rebuffat, Renée. (2005). Le vétéran gétule de thullium. dans *Identités et cultures dans L'Algérie Antique*. Rouen : publications des Universités de rouen et du Havre, pp. 193- 233.
18. Romey, Alain. (1998). Perception de la limite et de la frontière au Maghreb de L'Antiquité à la contempoaniété. *cahiers de la Méditéranée* (56),pp. 29- 38.
19. Salama, Pierre. (1951).*Les voies Romaine de L'Afrique du Nord*. Alger : Impremerie officielle du gouvernement général, Alger.
20. Yahiaoui, Nora. (2003). *Les Confins Occidentaux de la Maurétanée Césarienne*. (Thèse de doctorat). E.P.H.E.

- الموسوعات:

1. Desange, Jehane. (1990). Autoltae/ Autololes/ Autoteles. *Encyclopedie Berbère*, t.(08), 1175 – 1176.
2. Desange, Jehane. (2010). Musunii. *Encyclopedie Berbère*, t.(32), 5155 – 5156.
3.Trousset, Pol. (2012). Nomadisme (saharien en Afrique du Nord dans L'Antiquité), *Encyclopedie berbère*,34, pp. 5578 – 5589.